من بيوت القهوة إلى المقاهي التاريخ والأزمة والمسار مقاربة سوسيو تاريخية

الباحث: عبدالله بن عمر بن عبدالمعين الزبيدي
القسم: علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية

المستخلص:

تناولت هذه الورقة بإيجاز التاريخ الاجتماعي للمقاهي خلال خمسة قرون، وذلك بهدف الكشف عن التحولات التي مرت بها المقاهي من بيوت للقهوة دارت حولها الشكوك والشبهات إلى المقاهي التي يتفاخر بارتيادها اليوم عامة الناس. وقد سلكت هذه الورقة في رصدها لهذه التحولات منهجاً تاريخياً يتتبع البدايات رافقت انتشار القهوة وظهور بيوتها، والإشكالات والجدالات التي دارت حولهما، ويبحث في الأسباب التي أدت إلى منعها وتحريمها. كما تتبعت مسار انتشار المقاهي من الجزيرة العربية مروراً بالقاهرة والشام وتركيا، وكيف استقبلتها أوروبا. ومن ثم ظهور الموجات الثلاث للقهوة والمقاهي التي انتهت إليها المقاهي اليوم حول العالم. وقد أوضحت هذه الورقة كيف أن القهوة والمقاهي استقبلت بنوع من التوجس والممانعة في كافة الأقطار التي وصلت إليها، مع اختلاف أسباب هذه الممانعة. ولئن كانت الممارسات التي احتفت شرب القهوة سبباً في تحريمها أول الأمر عند من حرمها من الفقهاء، فإن ثمة أسباب دينية واقتصادية كانت وراء رفضها في بعض دول أوروبا. ومع ذلك فقد أدت المقاهي أدواراً ووظائف مهمة حيث كانت فضاء للنقاش والحوار واللعب والمسامرة إضافة لبعض الوظائف الأخرى.

المقدمة:

«كنا نمر على عجل حين نحاذي قهوة العمال، في شارع السيد الذي يقسم حي الرويس بجدة إلى قسمين، نحاذر أن يرانا أحد نبطئ الخطى فيذهب به الظن إلى أننا نهم بدخول المقهى، أو أننا نتوقع أحدا ممن نعرفه، أو لنا به صلة، يقتعد كرسيًا في ذلك المقهى.

ولم يكن لنا، في حقيقة الأمر، أن نعرف أحدا من أهل الحي، سواء ممن كانوا مثلنا في مقتبل العمر أم ممن يكبروننا سنا، يقبل على نفسه أن يجلس في ذلك المقهى...وحين استقطب ذلك المقهى فئة قليلة من شباب الحي فأصبحوا من مرتاديه اعتبر أهالي الحي ما أقدموا عليه أمرا معيبا، غير أنه لم يكن مستغربا أن يصدر من تلك الفئة القليلة من الشباب، فهم معروفون لدى أهل الحي بسلوكهم المنحرف ومجاهرتهم بالانسلاخ من القيم المراعاة والتقاليد السائدة التي يمكن لها أن تجعلهم يترفعون عن ارتياد المقهى ويحاذرون أن يتصل بهم عيب الجلوس فيه.

لم يكن يحدث في المقهى ما يمكن أن يعد أمرا معيبًا يمكن له أن يفسر تلك النظرة التي كان أهل الحي ينظرونها إليه، لم يكن يقدم لمرتاديه غير الشاي... أما الشيشة التي كان يطلبها بعض رواده ، والتي كان بعض المتدينين في الحي يستكرهها، فلم تكن تختلف عن السجائر المنتشر تدخينها بين رجال الحي والتي لم يكن لها أن تلحق أي عيب بالمتعاطي لها، ولم تكن الأحاديث التي تدور بين رواد المقهى تخرج عن تطارح الهموم اليومية التي تدور في نفس فلك أحاديث أهل الحي أينما اجتمعوا، ورغم ذلك ظل المقهى محاطا بعيب غامض لم يكن أحد قادرا على تقديم علة له، وظل رواده موضع انتقاد لم يكن أحد قادرا على أن يفسره... لم يكن أحد يسأل عن سبب تلك النظرة التي تجعل من الجلوس في المقهى أمراً معيباً يتجنبه الناس، ولا يقدم عليه إلا من ألجأته الظروف فيسرف وقتاً مستقطعاً يقتعد فيه واحدة من تلك المقاهي البعيدة عن أعين من يمكن أن يراه من أهالي الحي...

طوى التاريخ صفحات ملتبسة وفتح صفحات جديدة عادت فيها المقاهي إلى شوارعنا محمولة على عاتق الشركات الكبرى تتباهى بها أسماء تعلقها على واجهتها... وانطوى جيلً كان يعد الجلوس في المقهى عيباً، وجيل يتخذ من الجلوس في المقهى وسيلة لإعلان التمرد على المجتمع والخروج من تقاليده، وجاء جيل أصبح فيه الجلوس في المقهى علامة على دخوله روح العصر ... عادت المقاهي وقد خلعت عن نفسها ما كان يلتبسها من نظرة اجتماعية ترتاب فيها وتنظر نظرة انتقاص لمرتاديها، وعادت إليها القهوة بعد أن اتخذت لنفسها مذاقاً وهيئة مختلفة عما كان يعهده عليها الناس «[١]

المقهى على الوجه الذي نعرفه اليوم هو نتاج تاريخ طويل يمتد نحو خمسة قرون من التجاذبات والتغيرات.

فمن هضاب (كافكا) في الحبشة شقت القهوة طريقها نحو اليمن، ومن اليمن وعبر ميناءها بالمخا انتشرت القهوة في مسارات متعددة حتى وصلت إلى جزر أندونيسيا شرقاً والبرازيل غرباً. ومن مكة حيث نشأت بيوت القهوة أول مرة شقت المقاهي طريقها عبر الحجاز نحو القاهرة وحلب وإسطنبول ثم أوروبا حتى انتهت إلى أشكالها الحديثة في كل أنحاء العالم. يحمل هذا التاريخ في طياته ابتهالات الأولياء، وجدالات العلماء، ومساجلات الشعراء، ومخاوف وفرمانات السلاطين

(١) السريحي، سعيد، غواية الاسم سيرة القهوة وخطاب التحريم، المركز الثقافي العربي،٢٠١١، ص ٩-١٢

والأمراء، وآلام المزارعين الفقراء، وأطماع الأغنياء. وتعرضت فيه القهوة للفحص والتمحيص قبل الفرز والتحميص، وتحولت خلاله المقاهي من بيوت يتوارى عنها الناس ولايقصدها إلا الأراذل والفقراء، إلى مقاهٍ يتداعى لها الناس، ويتباهى بها مرتادوها من علية الطبقات والأغنياء. وفي هذه الورقة سنلقي نظرة «موجزة» على التاريخ الاجتماعي للمقهى، بدءًا من اكتشاف القهوة كمشروب اجتماعي وما دار حولها من تجاذبات ونقاشات، ثم تجّمع الناس حولها فيما عرف ببيوت القهوة وأخيراً إلى الصورة الحديثة للمقاهي اليوم. أما التفاصيل الفنية والزمنية التعاقبية فلسنا معنيين بها إلا بقدر ما تكشف عنه من أسباب وظروف اجتماعية، وقد أشرنا في الهوامش لمظانها لمن أراد البحث والاستزادة.

البدايات:

تتنازع فضل اكتشاف القهوة مجموعة من الروايات، توغّل بعضها قديماً في التاريخ حتى رجع بها إلى بدء الخليقة منذ آدم، بينما كانت الروايات الأخرى تدور في فلك القرن التاسع الهجري وما بعده. هذه الروايات وإن تباعدت في تعيين الزمان إلا أنها تقاربت في تحديد المنشأ والمكان. لقد ذهبت كثير من الروايات مذاهب شتى في الكشف عن أصل شجرة القهوة، وكان لبعض الأنبياء منها نصيب من آدم إلى محمد صلى الله عليهما وسلم. وهذه الروايات أقرب للأساطير منها للواقع إذ تفتقر إلى الشواهد والأدلة التاريخية التي تعضدها.[٢] وأكثر الروايات منها شيوعًا – على سبيل الاستئناس – مايعزى إلى نبي الله سليمان عليه السلام، وقد أورد هذه الرواية المؤرخ عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الشهير بابن العماد الحنبلي (١٠٣٢- ١٠٨٩هـ/ ١٦٢٣- ١٦٧٨م) في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)[٣]: حيث يقول:

«إن ابتداء ظهورها كان في زمن سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام... فكان سليمان صلى الله عليه وسلم إذا أراد سيراً إلى مكان ركب البساط هو ومن أحب من جماعته وظلتهم الطير وحملتهم الريح، فإذا نزل مدينة خرج إليه أهلها طاعةً له وتبركاً به، فنزل يوماً مدينةً فلم يخرج إليه أحد من أهلها، فأرسل وزيره على الجن الدمرياط، فرأى أهل المدينة يبكون.

قال: ما يبكيكم؟

(٢) تتبع هذه الروايات المؤرخ الدكتور عبدالودود مقشر في سلسلة مقالات وأكثرها مخطوطات لم تحقق بعد.

(٣) ابن العماد، عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، دار ابن كثير دمشق للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، الطبعة الاولى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣، جـ١٠، صـ ٥٧- ٥٨.

قالوا: نزل بنا نبي الله وملك الأرض، ولم نخرج إلى لقائه.
قال: ما منعكم من ذلك؟
قالوا: لأن بنا جميعاً الداء الكبير، وهو داء من شأنه أن يتطير منه، وتنفر منه الطباع خوف العدوى.
فرجع وأخبر سليمان بذلك فدعا ابن خالته آصف بن برخيا، الله تعالى باسمه الأعظم أن يعلم سليمان ما يكون سبباً لبرئهم من ذلك، فنزل جبريل على سليمان، وأمره أن يأمر الجن أن تأتيه بثمر البن من بلاد اليمن، وأن يحرقه ويطبخه بالماء ويسقيهم، ففعل ذلك، فشفاهم الله تعالى جميعاً".

أما الروايات الأقرب للواقع فتذهب إلى أن اكتشاف القهوة إنما كان وليد الصدفة. على إنها وإن اختلفت في تعيين شخوص مكتشفها، ومكان اكتشافها، إلا بنيتها المورفولوجية تكاد تكون واحدة، وهي لا تخرج به عن إطار الأولياء والمتصوفة. وتعد قصة الراعي واحدة من أشهر القصص التي نالت استحسان المخيالين العربي والغربي على السواء، حيث تحكي القصة عن راعٍ يدعى خالدي، بينما كان يرعى الماعز لمولاه، إذ لاحظ منها نشاطاً وخفة على غير ما اعتاده منها، فلما ذهب يتستقصي سبب ذلك، وجد أنها كانت تأكل من ثمر إحدى الشجيرات التي تنمو برياً، فبه كان نشاطها ويقظتها. وحين أخبر الراعي مولاه بما رأى، قرر الأخير أن يجربها بنفسه، فشربها باردة أول الأمر، فلم يجد لها أثراً، ثم جربها ساخنة فجعله ذلك يتصبب عرقاً وأحس بالصفاء الذهني، فعرضها على بعض الأولياء والمتصوفة، ثم فشا شربها بين الناس.(٤) وتحكي رواية أخرى أن « قطيعاً صغيراً من الماعز كان يملكها درويش صوفي فقير، رجع ذات يوم من المرعى وهو مضطرب الأعضاء، فبحث الدرويش الصوفي عن سبب ذلك، فرأى أن القطيع رعى ذلك اليوم من أوراق شجرة صغيرة لم يكن نظرها قبلاً، فأخذ من أوراقها، وأثمارها، وصبّ فوقها ماءً ساخناً، وشرب الماء، فشعر بلذة وتخدر غير عادي».(٥)

ويعزى فضل إشاعة القهوة «كمشروب» حسب أكثر الروايات تدقيقاً وتحقيقاً إلى الشيخ الفقيه الصوفي علي بن عمر الشاذلي (٧٥٥ – ٨٢٨هـ / ١٣٥٤ – ١٤٢٤م). فقد نقل الجزيري عن فخر الدين أبو بكر بن أبي يزيد المكي «والذي بلغنا عن جمع يبلغ حدّ التواتر أن أول من أنشأها وأظهرها، وبأرض اليمن أشاعها

(٤) مونرو، اليزابيت، تاريخ القهوة العربية، مجلة الفيصل، العدد الربع – السنة الاولى، شوال ١٣٩٧هـ – سبتمبر ١٩٧٧م، صـ ١٢١.
(٥) نور الدين، صالح ، البن وزراعته ، مجلة المقتطف، الجزء ٩ ، ١٣شوال ١٣٠٧هـ، يونيو ١٨٩٠م

وأشهرها، سيدنا الشيخ العارف بالله تعالى علي بن عمر الشاذلي».[٦] ولذا اشتهر تسمية القهوة بـ «الشاذلية» نسبة إليه. كما اعتبر الشاذلي رمزاً للقهوة، وتشكلت حولها (أي القهوة) عند بعضهم ممارسات طقوسية لا يتم شربها إلا بها.[٧] يقول الرحالة نيبور «ولا يعتبر الشاذلي شفيع [ولي] المخا وحسب، بل شفيع أصحاب المقاهي المسلمين من أتباع المذهب السني كلهم، ويقال إنهم يقرؤون الفاتحة كل صباح على روحه، ولا يعني ذلك أنهم يتضرعون إليه، إنما يشكرون الله لأنه علّم الإنسان استخدام القهوة عن طريق الشيخ الشاذلي، ويرجون منه أن يرحم الشيخ المذكور وآله».[8]

من بيوت القهوة إلى المقاهي الحديثة.. التاريخ والأزمة والمسار:

غالباً ما تكتنف عميلة التأريخ للبدايات حالة من الغموض والأسطرة. وفي حالة القهوة والمقاهي نجد كثيراً من الدعاوى لمؤرخين وباحثين تحاول رسم خط سير المقهى وبداياته. وإذا كان الخلاف في أصل اكتشاف القهوة نبتة ومشروباً بين الحبشة واليمن، فإنه ليس ثمة خلاف يذكر في أن لليمن فضل استزراع القهوة ونشرها وتصديرها عبر ميناءها «المخا»، إذ منها انتشرت القهوة في مسارات متعددة. فقد شقت القهوة طريقها من اليمن نحو الحجاز، وصولاً إلى القاهرة، وبحلول العقد الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي، دخلت

(٦) الجزيري، عبدالقادر بن محمد، عمدة الصفوة في حل القهوة، تحقيق: عبدالله الحبشي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٧، ص ٧٢.
ومن ذكر ذلك أيضاً، الشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس في كتابه (صفوة الصفوة في بيان حكم القهوة) ما يلي: "وهو –أي الشيخ علي بن عمر الشاذلي– أول من أظهر القهوة فنسبت اليه، واشتهرت به اشتهاراً عظيماً." وورد أيضاً عن المرتضى الزبيدي في رسالته (تحفة إخوان الزمن في حكم قهوة اليمن): «وأجمعوا على أن أول من نشر صيتها القطب الكامل سيدي أبو الحسن علي بن عمر القرشي الشافعي الشاذلي... فأظهر منافعها، وبيّن خواصها، وحثّ تلامذته على شربها في مجلس الأذكار والعبادات، فوجدوا فيها منافع غريبة، وخواص عجيبة، فصنفوا فيها الكتب." وذكر العلّامة عبدالرحمن بن محمد العيدروس المتوفّى سنة ١١١٢ هـ في كتابه (أيناس الصفوة في أنفاس القهوة): "كان أوّل حدوثه -أي مشروب القهوة- أوّل القرن التاسع وأواخر القرن الثامن باليمن المبارك، ومنشِئه الشيخ الإمام الحجة الهُمام صاحب المناقب الفاخرة، علي الشاذلي ابن عمرَ الشهير بدِعْسَيْن، صاحبُ المَخَا وحليف السَّخا". وذكر الرحالة علي صدر الدين المعروف بابن معصوم تـ(١١٢٠هـ) في رحلته المعروفة بـ(رحلة ابن معصوم المدني أو سلوة الغريب وأسوة الأريب) فقال: «والإجماع على أنه الذي أظهر القهوة المتعارفة في هذا الزمان، التي طبّقت شهرتها العالم... قيل: وسبب اهتدائه إليها أنه كانت له لقحة –الناقة الحلوب الغزيرة اللبن– يسرّحها كل يوم للراعي، وكانت ترعى ثمرة هذه الشجرة، فاستطاب لبنها طعماً وخاصية، فتبعها يوماً فرآها ترعى هذه الثمرة فجنى منها شيئاً وقلاه واستعمله، فأحدث في نفسه نشاطاً وأريحية، فواظب على استعماله، ثم طبخه فرآه أجدى من استعماله مقلياً، فلم يزل الأمر يزيد حتى بلغ هذه الشهرة».

(٧) أورد المؤرخ الدكتور عبدالودود مقشر بعضاً من هذه الممارسات. انظر، مقشر، عبدالودود، نشأة القهوة العربية وانتشار زراعة البن في اليمن ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلادي ، مجلة أبحاث العدد) ٦ (شوال ١٤٣٧هـ يونيو ٢٠١٦م – كلية التربية – جامعة الحديدة ، ص ٢٦٩

(٨) نيبور، كارستن، رحلة الى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ترجمة عبير المنذر، مؤسسة الانتشار العربي – بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧م، ج١، صـ ٣٤٧.

القهوة إلى دمشق، ومن هناك وصلت إلى اسطنبول مع منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي.

انتشرت القهوة في الحجاز أول أمرها في مكة، فقد حكى ابن عبدالغفار المالكي أنه «في سنة أربع أو خمس من هذا القرن – ٩٠٤هـ – ٩٠٥هـ / ١٤٩٩-١٥٠٠م – سمعنا في مصر أيضا أنها وصلت إلى مكة وفشت فيها أيضا فشوّا كثيراً... وسمعنا أيضا أنها فشت في المدينة ولكن دون فشوّها في مكّة، بحيث أنّ الناس يطبخونها في بيوتهم كثيراً ولكن ليس لها موضع تباع فيه».[٩] ونقل الجزيري عن فخر الدين أبي بكر بن أبي يزيد المكي في رسالته عن القهوة)إثارة النخوة بحل القهوة(قوله " وأما نحن فقد أدركنا القشر يرى بمكة وغيرها من منذ عشرين سنة وأكثر ولم تظهر القهوة منه إلا في أواخر القرن التاسع، وإلى هذا الآن من القرن العاشر «[١٠]

ومنها (أي مكة) شقت القهوة طريقها نحو القاهرة، حيث أشاعها مجموعة من صوفية اليمن كانوا يجتمعون لها في أحد أروقة الأزهر. وينقل الجزيري عن ابن عبدالغفار المالكي أن أول ظهورها بمصر في العشر الأول من القرن العاشر الهجري» فكانت تشرب في نفس الجامع الأزهر برواق اليمن يشربها فيه اليمانيون، ومن كان يسكن معهم في رواقهم من أهل الحرمين الشريفين»[١١]

وحُكي عن الشيخ علي بن محمد الشامي أنه أول من أشهر شرب القهوة في دمشق، وبفضله انتشرت في بقية بلاد الشام، فقامت بيوتها في حلب ثم القدس.[١٢] وبحلول منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي، كانت القهوة وبيوتها منتشرة في إسطنبول.

في إسطنبول كانت المقاهي أكثر حيوية، فلفتت أنظار الرحالة والمسافرين. ويعزى إلى التاجرين السوريين حكم وشمس أنهما أول من أدخل المقاهي إلى إسطنبول، حيث افتتحا مقهييهما في حي(تكتشلة)، وقد احتويا على مقاعد وأرآئك وثيرة جلبت لها الناس من مختلف الطبقات. وسرعان ما أصبحت المقاهي منتشرة في كافة نواحي إسطنبول، حيث كانت الفضاء الذي يقضي فيه الناس معظم أوقاتهم، للحديث وتزجية الوقت في المسامرة واللعب، وكذلك لإبرام الصفقات

(٩) المالكي، شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار المصري، رسالة القهوة، تحقيق وتقديم إبراهيم محمد السعداوي، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، ٢٠١٠م، ص ٨١-٨٤

(١٠) الجزيري، مرجع سابق، ص ٧٣.

(١١) المرجع السابق، ص٧٣-٧٤

(١٢) الأرناؤوط، محمد، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ٣٨

التجارية واستقبال الزائرين والمسافرين. وأدى ظهور بيوت القهوة إلى إيجاد إمكانات لبزوغ أشكال جديدة من التفاعل الاجتماعي، فقد كان الاحتفاء بالآخرين يقتضي في السابق أن يدعوهم المرء إلى منزله، وهو ما يستتبعه نوع من ممارسات التباهي بالممتلكات، ومن ثم ظهور علامات التفاوت الاجتماعي. ولكن في بيوت القهوة يستطيع المرء مقابلة أقرانه وتبادل الضيافة على قدم المساواة بوسيلة بسيطة تتمثل في شراء فناجين القهوة بعضهم لبعض. ولقد سمح معمار هذه البيوت في إشاعة أجواء المساواة هذه، حيث كان الزبائن يجلسون وفق وقت وصولهم على مقاعد طويلة أو على دواوين تمتد على طول الجدران، وليس وفق مكانتهم الاجتماعية أو رتبهم الوظيفية.(١٣) فقد لاحظ «ثيفينوت»، الذي أقام في اسطنبول عام ١٦٥٥م إلى أنه «ليس ثمة فقير أو غني، لا يشرب على الأقل فنجانين من القهوة أو ثلاث في اليوم... وكل أنواع الناس يأتون إلى هذه الأماكن، [أي المقاهي] دون تمييز في الدين أو المكانة الاجتماعية؛ إذ ليس هناك أدنى خجل من دخول مثل هذا المكان».(١٤)

الأزمة:

دخلت القهوة إلى مكة من طريق اليمن عبر فقهائها وأوليائها. وفيها (أي مكة) كان على الأرجح أول بيت وُضع للقهوة (ما سيعرف لاحقاً بالمقهى)، حيث اجتمع الناس لشرب القهوة وتداول الأحاديث وغيرها خارج فضاء المنزل، إذ كانت تشرب أول الأمر في مجالس الخاصة من العلماء والأولياء قبل أن يعرفها عوام الناس. ولم ينكر أحد ذلك بادئ الأمر، غير أنه لما شاع شربها بين الناس، استحسن البعض الاجتماع لها والتحلق حولها؛ للمسامرة واللعب، فخصصوا بيوتاً لها لهذا الغرض، ثم حصل ما كان من حادثة مكة الشهيرة وحينها بدأت ظلال الخلاف والشك تخيم حولها.

ففي ليلة الثالث وعشرين من ربيع الأول عام ٩١٧هـ /١٥١١م ، وبينما كان (خاير بك) ناظر الحسبة في مكة من قِبَل السلطان (قانصوه الغوري)، في طريقه إلى بيته إذ لمح جماعة من الناس يحتفلون بالمولد النبوي «ووجد بينهم شيئاً يتعاطونه على هيئة الشربة الذين يتناولون المسكر ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم» فرابه ما رأى، فلما سأل عنه «قيل هذا شراب اتخذ في هذا الزمان وسمي

(١٣) موريس، جوناثان. القهوة تاريخ عالمي، كلمة، ٢٠٢١، ص ٨٠-٨١

(14) Kafadar, Cemal: A History of Coffee, unpublished paper, https://sites.duke.edu/rethinkingglobalcities/files/2014/09/64Kafadar16-coffeehistory.pdf p51–53

القهوة يطبخ من قشر حب يأتي من بلاد اليمن يقال له البن، وأن هذا الشراب قد فشا أمره بمكة وكثر وصار يباع في مكة على هيئة الخمارات ويجتمع عليه الناس بالرهن وغيره مما هو ممنوع في الشريعة المطهرة». وقد أثار هذا في نفسه الريبة والقلق، فلم يهدأ له بال حتى أصبح الناس، فأرسل إلى قاضي القضاة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي، والقاضي نجم الدين بن عبدالوهاب المالكي، وغيرهم من العلماء، وذلك لمناقشة أمر القهوة المذكورة واجتماع الناس عليها على الهيئة المشروحة، وقد اتفق العلماء في نقاشهم على التمييز بين القهوة نفسها وبين ما يصاحب شربها من مظاهر وأحوال، وإذ أن هذا الحب المسمى بالبن نبات فحكمه حكم النباتات والأصل فيه الإباحة، غير أنهم تركوا للأطباء أمر تقرير وتقدير الضرر. أما اجتماع الناس في شربها على تلك الهيئة فهو منكر ينبغي الانتهاء عنه. وبناءً على هذا الرأي أحضر خاير بك على الفور طبيبين شهدا بأن هذا المشروب « بارد يابس مفسد للبدن المعتدل» فاعترض حينها الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي (مفتي مكة آنذاك) بأن البن مباح ومفيد (حارقُ للبلغم)، فأجيب عليه بأنه حتى ولو كان مباحاً إلا أنه قد جر إلى معصية فانتفى بذلك حكم الإباحة. وتكاثر الجالسون في مجلس خاير بك، ولم يسلم مفتي مكة الشافعي من أذى الجالسين، وطاله منهم التكفير والشتم. حتى إنهم وصفوه (بالواعظ الجاهل) في سؤالهم الذي ألحقوه بمحضر الاجتماع الذي أُرسِل للسلطان (قانصوه الغُوري) بالقاهرة بعد الاجتماع، وهذا نصُّه:

ما قولكم في مشروبٍ يُقال له القهوة، مُشاعٌ شُربه بمكة المشرّفة وغيرها، بحيث يتعاطونه في المسجد الحرام وغيره، يُدار بينهم بكأس من إناء لآخر. وقد أخبر خلقٌ ممن تابع عنه بأن كثيره يؤدي إلى السكر، وأخبر عدول من الأطباء بأنه مضرٌّ بالأبدان، وقد منَع من شربه من يُعتدُّ بقوله من العلماء بمكة والزهاد بها، وهناك شاهدٌ جاهلٌ جعل نفسه واعظًا، وأفتى الفساق بحلِّ شُربه.. فهل يحل شربه على الوجه المذكور أم يُحرم مطلقًا لكونه مسكرًا ومضرًّا بالأبدان؟ وماذا على الجاهل المبيح لشربه، وهل يجب على ولي الأمر أيّده الله تعالى إزالة هذا المنكر والمنع منه؟ ورد هذا الجاهل ومن يقول بقوله أم لا؟ ومن الحَكَمُ في ذلك؟

وحين وصل المحضر/ السؤال إلى السلطان (قانصوه الغوري) أصدر مرسوماً لنشره في مكة وفيه» أما القهوة فقد بلغنا أن أناساً يشربونها على هيئة شرب الخمر ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون وينكسرون، ومعلوم أن ماء

زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حراماً. فليمنع شرّابها من التظاهر بشربها والدوران بها في الأسواق» وحينها، وفي ضحوة يوم الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الأول أشهر خاير بك النداء بمكة المشرفة بمسعاها ونواحيها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة المذكورة.[١٥]

لم تكن هذه الواقعة سوى الشرارة التي انطلق منها باب من الجدل والنقاش امتد نحو مائتي عام، وسودت فيه الأوراق نثراً وشعراً، تحريماً وتحليلاً، هجاءً ومدحاً، وأغلقت فيه من بيوت القهوة بنحو ما فتحت قبل أن تستقر على حال واحدة.

برز شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٨٢٣-٩٦٢هـ / ١٤٢٠-١٥٢٠م) متردداً في موقفه من القهوة، إذ منع الناس من شربها أول الأمر فلما راجعه بعض عشاقها وأكثروا عليه بدا له أن يختبرها عليهم، فأحضر قشر البن وأمر بطبخه ثم أمرهم بشربها، ثم فاتحهم في الكلام فراجعهم فيه ساعة من الزمن فلم ير منهم من الكلام لاتغيراً ولا طرباً فاحشاً بل وجد منهم انبساطاً قليلاً ... ثم زاد فلم يؤثر وحينها تبين له حلها وكتب في ذلك.[١٦]

ويبدو أن أحمد ابن عبدالحق السنباطي (المتوفى ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) قاد حملة معارضة في القاهرة ضد القهوة وبيوتها إذ أفتى بتحريمها سنة ٩٣٩هـ /١٥٣٢م حينما وجّه له أحد تلاميذه سؤالاً متحاملاً وفيه « ما قولكم، رضي الله عنكم ، في شراب يسمونه القهوة ، يجتمع عليه الجماعة يشربونه ويزعمون أنه مباح مع أنه يترتب عليه مفاسد كثيرة ، فهل هذا جائز أم حرام؟ أفتونا». وقد أجابه الشيخ ابن عبدالحق بأنها» حرام لأنها مسكرة»

وقد أثار موقفه هذا غضب أنصار القهوة فقال بعضهم في ذلك:

إن أقوامًا تعدَّوا والبلا منهم تأتَّى
حرّموا القهوة عمدًا .. قد رَوَوا إفكًا وبُهتًا
إن سألتَ النصَّ قالوا: .. ابن عبدالحق أفتى
يا أولي الفضل اشربوها.. واتركوا ما كان بُهتًا
ودعوا العُذَّال فيها.. يشربون الماء حتى

ويقول الشيخ محمد البكري الصديقي (توفي ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م):

أقول لمن ضاق بالهم صدره .. وأصبح من كثر التشاغل في فكر

(١٥) الجزيري، مرجع سابق، ص ٨٩، ١٠٣-١٠٤
(١٦) الأرناؤوط، محمد، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ١٨-١٩

عليك بشرب الصالحين فإنه ... شراب طهور سامي الذكر والقدر
فمطبوخ قشر البن قد شاع ذكره...عليك به تنجو من الهم في الصدر
وخلّ ابن عبدالحق يفتي برأيه ... وخذها بفتوى من أبي الحسن البكري

وتصاعد الموقف بين مؤيدي القهوة ومانعيها حتى تعصّب جماعة من العوام لما بلغتهم فتوى ابن عبدالحق السنباطي فخرجوا إلى بيوت القهوة من تلقاء أنفسهم من غير أمر حاكم فكسروا آنيتها وضربوا جماعة ممن كانوا فيها فقام بسبب ذلك فتنة كبيرة. وحينها أحيل الأمر إلى قاضي القضاة محمد بن إلياس الحنفي، فناقش العلماء أولاً ثم أحضر جماعة وفعل مثل ما فعل شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وحين تبين له مثل الذي تبين للذي قبله أقرها على حالها من الإباحة. وظل الأمر على هذه الحال بين تحريم وتحليل ومنع وفسح حتى استقرت على نحو ما استقر عليه الحال بعد ذلك وإلى اليوم. [١٧]

ولكي يتأتى لنا فهم هذا الجدال الذي دار حول القهوة وبيوتها علينا أن ندرك أمرين أو عاملين يبدو أنه كان له الأثر الكبير في توجيه وتشكيل هذا الخطاب. أولهما يتعلق بدلالة لفظة القهوة، والثاني بالممارسات التي احتفت شربها.

إشكالية التسمية:

وردت كلمة «القهوة» في كلام العرب قديماً للدلالة على معان متعددة من أبرزها الخمرة قبل أن يستأثر بها مشروب البن كما نسميه اليوم.[١٨] ويعود أصل الكلمة إلى الجذر قها، أو قهو، وهي تأتي بمعنى الاجتواء، إما كراهة عند قوم أو شبعًا عند آخرين. يقول ابن منظور: «قها، أَقْهَى عن الطّعام واقْتَهَى: ارتدَّت شَهْوته عنه من غير مرض، مثل أَقْهَمَ يُقال للرجل القلِيل الطُّعْم: قد أَقهى وَقَدْ أَقْهَمَ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الطَّعَامِ فَلَا يَأْكُلُهُ وَإِنْ كَانَ مُشْتَهِيًا لَهُ. وَأَقْهَى عَنِ الطَّعَامِ إِذَا قَذِرَهُ فَتَرَكَهُ، وَهُوَ يَشْتَهِيهِ. وَأَقْهَى الرجل إذا قل طُعْمُه. وَأَقْهَاهُ الشَّيء عن الطَّعَامِ: كَفَّهُ عَنْهُ، أَوْ زَهَّدَهُ فِيهِ. وَقَهِيَ الرجل قَهْيًا: لم يَشْتَه الطَّعَامَ. وَقَهِيَ عَنِ الشَّرَابِ وَأَقْهَى عَنْهُ: تَرَكَهُ...**وَالْقَهْوَةُ**: الخمر، سُمِّيَت بذلك لِأَنَّهَا تُقْهِي شَارِبَهَا عَنِ الطَّعَامِ، أَيْ: تَذْهَبُ بِشَهْوَتِهِ، وَفِي التَّهْذِيبِ، أَيْ: تُشْبِعُهُ.»[١٩]

(١٧) الجزيري، مرجع سابق، ص ٨١

(١٨) للمزيد في دلالات القهوة في اللغة العربية، ينظر: هدى فتحي عبدالعاطي، السمات الدلالية لكلمة القهوة في معانيها الرئيسية في الشعر العربي دراسة وصفية.

(١٩) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر – بيروت ، ١٩٩٧، مادة (ق.هـ.ا) ج ١٥، ص ٢٠٦

وفي مقاييس اللغة لابن فارس «(قَهَوَ) القاف والهاء والحرف المعتل أصل يدل على خصب وكثرة. يقال للرجل المخصب الرحل: قاه . يقال: إنه لفي عيش قاه . فأما قولهم: أقهى الرجل من طعام ، إذا اجتواه ، فليس ذلك من جهة اجتوائه إياه ، وإنما هو من كثرته عنده حتى يتملأ عنده فيجتويه. وأما القهوة فالخمر ، قالوا : وسميت قهوة أنها تقهي عن الطعام; والقياس واحد[٢٠] . لم يكن يغب عن أولئك الذين أطلقوا اسم القهوة على هذا المشروب المتخذ من البن دلالات هذه التسمية في اللغة العربية وارتباطها بالخمر (النبيذ المسكر)، ومع ذلك، فلم يتورعوا عن استعمال هذا الاسم كتورعهم عن شرب الخمرة.[٢١] وربما كان في ذلك نوع من الحنين أو التوق نحو الخمرة المحرمة /الموعودة كما يذهب البعض .[٢٢] غير أن علاقة القهوة (الخمرة) بالقهوة (البن) لدى الصوفية هي أكثر مجازية ورمزية من ذلك، توضحها التجربة الشعرية للصوفية في تغزلهم بالخمرة رغم عدم شربهم لها، والجامع بينهما «نشوة الاتصال /الغياب»، فكلا القهوتين تمنح شاربها حالة من النشوة التي يتطلبها المتصوف في سعيه التعبدي نحو الغياب عن ذاته والاتصال بالله، كما أنها من جهة أخرى تقهيهم عن الطعام فتزهدهم فيه وتسد شهوتهم عنه وهو ما تحض عليه الأدبيات الصوفية في الزهد والتقشف.[٢٣]

ومهما كان السبب فإن هذه التسمية كان لها تبعاتها إلى حد ما في إثارة هذا الجدل حول هذا المشروب، غير أن السبب الأبرز في ذلك يتعلق بالهيئات والممارسات التي احتفت شرب القهوة.

من المتصوفة إلى العوام: الهيئات والممارسات التي احتفت شرب القهوة

لايقتصر الإشكال المتعلق بالقهوة كما ذكرنا آنفاً على اسمها، إذ لو كان الأمر كذلك لسهل معالجته خصوصاً وأن القهوة ليست اسماً شائعاً للخمرة «النبيذ» عند عامة الناس.[٢٤] فمع انتقال القهوة وشيوع شربها بين عامة الناس حصل نوع من

(٢٠) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والهاء وما يثلثهما.

(٢١) اعتماداً على كون المتصوفة هم أول من أشاع شرب القهوة فمن المرجح أنهم هم من أطلقوا عليها هذا الاسم، وممن يرجح هذا القول محمود مفلح البكر في كتابه القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي، ص ٢٤

(٢٢) السريحي، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢

(٢٣) عبدالله الناصر، قهوة نامة، ص ١٤٨ وانظر أيضاً : خالد علي إدريس ، رمزية الخمر في الشعر الصوفي، المجلة الدولية للبحوث الأكاديمية ، International Journal of Academic Researchs Studies Year:٢, Number:2, Haziran/June 2019 ص ١٠٢-١١٤

(٢٤) * المصطلات وصف يطلق على كل مايذهب العقل كالحشيش والبنج والأفيون.
على خلاف مايذهب إليه بعض الباحثين من أن القهوة لم يكن لها أن تمر بما مرت به من صراع لو أنها منحت اسماً غير الذي عرفت به. محمد غبريس ، تاريخ القهوة العربية ، دار المحيط . ص٦٠

التحول في المقاصد والنوايا والأمزجة والهيئات التي احتفت شرب القهوة، وشابهت بيوت القهوة حانات الخمر وإن لم تكنها. يصف تلك الحالة العلامة الجزيري بقوله:

«ثم اختلفت المقاصد في الأمصار والبلدان، وتبدل ذلك طوائف من أهل الفسوق والعصيان، وتشبهوا في أعراضهم مع إعراضهم عن مقاصد ذوي طاعة الرحمن، وخلطوا الجد من الذكر بالهزل من القول والإكذاب، وكثر تجمعهم على تعاطيها في حانات لهو لهم بما أضيف إليها وبإدارتها كالشراب، وحرموا ما كان حلالا بأوصاف أفعالهم الخبيثة التي تظاهرهم بها كلوامع السراب، وانهمك على شربها من أبتلي بما زينه الشيطان فكان مسخا لغواته من الناس ...... وكثر تعداد حاناتها وألم بجمعها حسان الصبيان والمردان، وعكفوا بها على اللهو والبطالة واباع خطوات الشيطان، وبذلوا مجالس الذكر والعبادة بسماع الأنغام والملاهي والألحان، ولعب الشطرنج وغيره مما يصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويمدهم بوافر الخسران، وتنوعوا فيما يغير عقولهم من الخبائث التي يكف أقدامهم عليها واليد واللسان، وخلطوا بها أنواع المصطلات* «[٢٥]

ولذا فإن بعض من أجاز شرب القهوة كره في الوقت ذاته تلك الممارسات التي احتفتها ونهى عن شربها على تلك الحال التي اجتمعوا لها في بيوتها، كما قرر الإمام المفتي محمد بن محمد المولى أبو السعود الحنفي ، حين سئل عن شرب القهوة بالصورة التي يجتمع لها بعض أهل الفسق ، فأجاب بقوله «ما أكب أهل الفجور على تعاطيه، فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله، ويتقيه، وهذا ليس فيه تصريح بتحريمها، بل يقتضي أن الأولى تركها حذراً من التشبه بالفجار، والكلام في القهوة الآن قد انتهى الاتفاق على حلها في نفسها وأما اجتماع الفسقة على إدارتها على الملاهي، والملاعب، وعلى الغيبة، والنميمة فإنه حرام بلا شك وقد أجبت عن سؤال صورته.

أيها الفاضل الذي جمع العلم ... وحاز التقى فأصبح قدوة
أفتنا أنت هل تقول حلال أم ... حرام على الورى شرب قهوة

فقلت:

أيها السائل الذي جاء يرجو ... عندنا أن نبيحه شرب قهوه
قهوة البن لا تكون حراماً ... إنها لا تفيد في النفس نشوه
غير أن الذي يجيء بيوتاً ... هي فيها تدار عادم نخوه
إذ يرى المرد والمعازف والنرد ... وكل يلهو فيبلغ لهوه
ثم لم يقو أن يغير نكراً ... خشية أن يعد ذلك هفوه

(٢٥) الجزيري، مرجع سابق، ص ١٠٤

أو يجيبوه بالإهانة والسوء ... ويجفونه بأعظم جفوه
أويخلي شيطانه لهواه ... لهوه في تلك البيوت ولغوه
معرضاً عن رشاده وتقاه ... سالياً عن صلاته أي سلوه
كل هذا مخالف لطريق ... خطه المصطفى وعرج نحوه
فأجتنبه ودع طوائف تدعوك ... إليه ولو بآكد دعوه
لا تطعهم ولو رضوا منك خطوة ... فتطيع الرجيم في كل خطوه
وإذا شئت شرب قهوة بن ... حسوة قد أردت أو ألف حسوه
فليكن ذاك وسط بيتك مهما ... لم تشب صفوها بموجب صبوه
واذكر الله أولاً وأخيراً ... وتوثق منه بأوثق عروة»[٢٦]

انتشار القهوة والمقاهي في أوروبا:

عرفت أوروبا القهوة أول أمرها في كتب الرحالة والعلماء قبل أن تدخلها كمشروب، وصف أستاذ علم النبات البيني (١٥٥٣-١٦١٧)، في كتابه «النباتات المصرية» شجرة البن التي يراها لأول مرة فيقول: « رأيت هذه الشجيرة في القاهرة، وهي تنتج ثماراً، وهي شائعة جداً في مصر، ويسمونها شجرة البن، ويصنع العرب من ثمارها شراباً يحتسونه بدلاً من الخمر، وهو يباع في مقاهيهم (حاناتهم) كما يباع الخمر في حاناتنا. وهم يسمون هذا الشراب القهوة، ويجلبون هذه الثمرة التي يصنعون منها القهوة من اليمن السعيد «[٢٧]

ويذهب الذين أرخوا لتاريخ القهوة إلى أن دخول القهوة أوروبا كان عن طريق التجار الأتراك في البندقية، حيث سجلت بعض معدات تحضير القهوة ضمن الممتلكات المجرودة لتاجر تركي وجد قتيلاً في المدينة حوالي سنة ١٥٧٥م. [28] ويعزى إلى البولندي كلوشيتسسكي فضل افتتاح أول مقهى في أوروبا على خلفية دوره في فك الحصار العثماني عن بولندا سنة ١٦٨٣م، فكانت مكافأته تلك الكمية الكبيرة من حبوب البن التي خلفها الأتراك ورائهم. وبها افتتح أول مقهى في فيينا باسم الزجاجة الزرقاء.[٢٩]

في طريقها إلى أوروبا؛ واجهت القهوة والمقاهي من التوجس والممانعة بنحو ما واجهت من قبل، وإن اختلفت الدوافع والأسباب. وكان للبعد الصراعي مع العالمين العربي والإسلامي دوره في هذه الممانعة. فبينما اعتبرتها الكنيسة الأنجليكانية تهديداً للديانة المسيحية، رأى فيها آخرون اختراقاً عثمانياً يتهدد المشاعر الوطنية.

(٢٦) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد، الكواكب السائرة في مناقب أعيان المئة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧م. ص ٣٢
(٢٧) نقلًا عن غوردن كير، حبوب البن الساحرة التاريخ المختصر للقهوة، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٢١، ص ٤١
(٢٨) انظر: المرجع سابق، ص ٤١. وأيضاً: موريس، مرجع سابق، ص ١٠٠. و Kafadar، مرجع سابق.
(٢٩) موريس، جوناثان. مرجع سابق ص ١٠١

وكان الهجوم الديني على أشده في إنجلترا. حيث وصفها بعض الإنجليز بـ «الحبوب المحمدية « وهي حسب أحدهم « عصيدة محمدية» يشربها المرتد عن المسيحية. و» تجعل الانجليز مستعدين للتحول للإسلام». وفي سنة ١٦٦٥ م نشر مؤلف انكليزي مجهول كتابا بعنوان «خصائص المقهى» ذمّ فيه القهوة لكونها تؤدي إلى التسامح الديني مع المسلمين. وفي نص لمؤلف إنجليزي آخر « القهوة شراب الشيطان طبخها بمساعدة الأتراك لتدمير العالم المسيحي».[٣٠]

ولم يغب الدافع الاقتصادي عن هذا الهجوم حتى وإن تخفّى خلف ذرائع دينية، حيث حضرت القهوة على حساب الخمر، فتراجعت مبيعات الأخير لصالح الأول. فقد ذكر وليام هوغارث في كتابه « شارع البيرة « أن «حبوب القهوة هي حبوب الكفار والتحول إلى شرب القهوة بدل الجعة ردّة عن الطريقة الفطّرية وانسلاخ عن الإنجليزية، وسعي فاجر إلى أصناف مختلفة من الأشربة الأجنبية المدمرة».[٣١]

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل شارك الأطباء في هذا الجدل ذماً ومدحاً، فقد رأى فيه الطبيب وليس «مشروباً محفوفاً بالمخاطر يولّد الخمول وقد يصيب بالشلل، وأنه قد يكون خطيراً على القلب، وقد يسبب ارتعاشاً في أطراف محتسي القهوة» غير أنه اعتقد أيضاً أنه احتساءها باعتدال له فوائد منها أنه « يجعل الروح وضاءة» [٣٢]

ومع ذلك فإن المخاوف الأكبر كانت تتعلق بأبعاد سياسية –اجتماعية حيث ارتبط دخول القهوة وظهور المقاهي في أوروبا ببعض التغيرات الاجتماعية الكبرى، وهو مايعزوه بعض الباحثين إلى الحيوية والنشاط التي يحدثها هذا المشروب مقارنة بالكحول، وهو الأمر الذي حفز الناس في ظل انتشار المقاهي للإنخراط أكثر في النقاشات الفكرية والسياسية، مما حدا هابرماس لاعتبارها إحدى أهم المؤسسات التي أسهمت في ظهور وتشكل الفضاء العام في أوروبا. فقد « حفّز الجمع بين الاستعداد الذهني والمخالطة الاجتماعية محادثات مفعمة بالحيوية، يمكن أن تتحول سريعاً إلى مناظرات سياسية ونقد اجتماعي»[٣٣]

ساهم مجتمع الموهوبين (virtuosi) [٣٤] بما يتسمون به من فضول معرفي في

---

(٣٠) الناصر، عبدالله، قهوة نامة، مرويات القهوة والنور، روايات، ٢٠٢٠، ص ٥١-٥٢

(٣١) نقلا عن ، المرجع السابق، ص ٥٢

(٣٢) غوردن كير، مرجع سابق، ص ١١٤

(٣٣) كاثرين م. تاكر، ثقافة القهوة، ترجمة وفيق كريشات، فواصل للنشر والتوزيع، ٢٠١٩، ص ٩٥

(٣٤) الموهوبين أو البارعين (virtuosi) وصف أطلق على فئة من الناس امتازت بالفضول الفكري للمستجدات الثقافية. ويصف كوان مجتمع الموهوبين بأنهم أشخاص فضوليون «يتشاركون في حساسية مميزة، ومجموعة من المواقف والعادات والتفضيلات الفكرية التي أطلقوا عليها اسم» الفضول «.
Cowan, Brian William, The Social Life of Coffee, Yale University Press New Haven & London , 2005.

ترسيخ وإشاعة القهوة وبيوتها، إذ لم يكتفوا بشربها والكتابة عنها، بل قاموا بالترويج لها، ووقفوا في وجه الادعاءات المتشككة حولها. ويدعي كوان أنه لولا الموهوبين لربما ظل شرب القهوة ليس أكثر من عادة تركية غريبة يمارسها عدد قليل من متحدثي اللغة الإنجليزية.(٣٥)

فقد ضمت تلك المقاهي علماء ومفكرين وجامعي تحف وغيرهم، وانعقدت فيها لقاءات علمية واستعراضات فنية، ويذكر عن مقهى الاغريقي الذي افتتحه اليوناني جورج قسطنطين في عام ١٦٦٥م أنه كان مقر انعقاد لقاءات الجمعية الملكية البريطانية التي كان يرأسها آنذاك « إسحاق نيوتن « وكان المقهى مكان تعقد فيه محاضرات متسلسلة في الرياضيات يتم الإعلان عنها بوقت مسبق تكلف قيمة الدخول للمقهى « بنسا واحدا» وهو ما جعل مقاهي لندن تعرف في تلك الفترة «بالجامعات الرخيصة» أو جامعات البنس(penny universities) لأن الدخول لها لايتطلب سوى بنس واحد ثمناً للقهوة في مقابل تلك المعرفة المكتسبة من جراء النقاشات المفتوحة والجريئة داخل تلك المقاهي.(٣٦)

القهوة والتحولات الاجتماعية:

لاحظت كاثرين تاكر أن القهوة خلافاً لغيرها من المشروبات أثارت من الجدل ما لم يثره الشاي والشكولاتة مثلا والتي وصلتا أوروبا والشرق الأوسط في نفس الوقت تقريباً. إن التفسير الثقافي المتعلق بالتوجس من الجديد رغم وجاهته إلا أنه غير كاف، وليس لخصائص القهوة المنبهة أثر مستقل فالشاي يحتوي تقريباً على نفس الخصائص المنبهة للقهوة ولم يجد من الممانعة ما وجدت القهوة. بل إن القهوة أفضت إلى أماكن تجمع مكرسة لبيعها وشربها وهو مالم يحققه الشاي إلا لاحقاً وضمن نطاق محدود. وتتساءل تاكر ما إذا كان ثمة علاقة حقيقية بين القهوة والمقاهي والتحولات الاجتماعية؟(٣٧)

لقد ألمحنا سابقاً بشكل موجز إلى الأثر الذي أحدثته القهوة في تنشيط/تنوير المجتمع الأوربي حيث حفزت هذه اليقظة الذهنية في ظهور محادثات ونقاشات حيوية سرعان ماتحولت إلى مناظرات سياسية ونقد اجتماعي. ومن ثم فقد عدّت المقاهي في بعض الفترات مهددة للسلطات القائمة، غير أنه كما تستدرك تاكر لايمكن أن نفترض أن تلك التحولات والثورات الاجتماعية ما كان لها أن تقع لولا القهوة والمقاهي. وتاريخ المقاومة يكشف بلا ريب أن الناس لا يحتاجون إلى

(35) Cowan, Brian William, The Social Life of Coffee, Yale University Press New Haven & London , 2005. P14

(٣٦) موريس، جوناثان. مرجع سابق، ص ١٠٦

(٣٧) كاثرين م. تاكر، مرجع سابق، ص ٩٣-٩٥

القهوة في حراكهم الاجتماعي. ويؤكد هذه الملاحظة كوان والذي يرى أنه لا ينبغي لنا فهم المقاهي على أنها مؤسسة تطورت في معارضة تامة للهياكل الحكومية القائمة. بل هي في الواقع، كانت تتلاءم بسلاسة مع تلك الهياكل لأنها كانت أماكن جيدة لممارسة الأعمال التجارية ومعرفة ما يجري.(٣٨)

المقاهي والنوع الاجتماعي:

على الرغم من أن المقاهي في أوروبا اشتغلت كمكان ثالث، حيث وضعت الناس على قدم المساواة، إلا أن ذلك كان على مستوى الطبقة لا على مستوى الجنس. فقد غاب نساء أوروبا عن المقاهي في القرنين السابع والثامن عشر، أو في أحسن الأحوال كان وجودهم محدوداً بنطاق ضيق. وحتى لو جادل البعض أن النساء كان لهم حضور فإن ذلك لم يكن سوى استثناء على النحو الذي يؤكد القاعدة لا أن ينفيها. ومع ذلك، تتفق الروايات على أن النساء لم يتم استبعادهن تمامًا من المقهى.(39)

وربما كان غياب النساء عن مقاهي إنجلترا أكثر من نظيراتها في بقية أوروبا. ويتطلب فهم هذا الغياب أن نأخذ في الاعتبار تقاطعات الجنس والطبقة، لأن النساء من النخبة الاجتماعية في إنجلترا كن أكثر غياباً عن مجتمع المقاهي. «فلم تكن مقاهي لندن ببساطة مكانًا لسيدة ترغب في الحفاظ على احترامها» ولم يكن الجنس هو الوسيلة الوحيدة التي يتم من خلالها تقييد الوصول إلى الفضاء العام للمقهى. أكدت صحيفة Grub Street Journal بثقة في عام ١٧٣٢ أن النساء و «أصحاب الثروة» لا يترددون على المقاهي.(٤٠)

وفقاً لكوان، فقد كانت بيوت القهوة الانجليزية فضاء للذكور، وتم تحديد حدوده بوضوح كفضاء عام، بينما كان يُنظر إلى طاولة الشاي على أنها مساحة ترأسها النساء، وتقع بشكل صحيح ضمن الفضاء الخاص أي منزلية.(٤١) وربما كان ارتباط القهوة ببيوت القهوة أعاق تحضيرها في المنزل، وحيث أن بيئة بيت القهوة ذكورية فقد اتجه النساء إلى شرب الشاي ولاحقا الشوكولاته وكان يجتمعون لها إما في المنزل أو في الحدائق على مرأى من الجميع مما ينأى بهم عن الشك والريبة (٤٢)

(38) Cowan, Brian William, op. cit. P180
(39) Ibid, p 254
(40) Ibid, p 254
(41) Ibid, p 246

(٤٢) موريس، مرجع سابق ص ١٠٩-١١٠

وغالبًا ما اتُهمت النساء اللاتي يترددن على المقاهي بالدعارة، وبالفعل قام بعض حراس المقاهي بتسهيل الدعارة. ومما عزّز هذه الاتهامات هو قيام بعض بيوت القهوة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ببيع الكحول إلى جانب القهوة مما حولها مرة أخرى إلى حانات.(٤٣) وتوضح كثير من المصادر والوثائق كيف أن المقاهي الإنجليزية والفرنسية استخدمت النساء الجذابات لإغراء الرجال بالداخل، مثلما نشاهد في لوحة « Morning» لـ William Hogarth المرسومة عام ١٧٨٣م وهي تصور مجموعة من النساء يقفن أمام بيت توم كنغ للقهوة في لندن بصورة تستجلب الرجال إليهن.(٤٤) كما يقدر مؤرخو الفن أن النساء اللواتي تم تصويرهن في لوحة «At the Cafe» لـ Édouard Manet ١٨٧٨م كان يمكن فهمهن على أنهن عاهرات من قبل المشاهدين المعاصرين.(٤٥)



Morning by: William Hogarth 1783

لقد استخدمت المرأة كأداة تسويقية لجذب الزبائن، وكان وجود امرأة عاملة في المقهى سبباً لتفضيل مقهى على آخر، وفي بعض الأحيان حددت جاذبية العاملين

(٤٣) المرجع سابق، ص ١١١
(٤٤) المرجع سابق، ص ١١١
(45) (إليس) 2004: 217).

جودة المقهى لا القهوة.[٤٦]وكانت أبرز العوامل التي سمحت للمرأة بالتواجد في فضاء المقهى هو أن تكون حارسًا لها أو خادمة. فقد كان المقهى أيضًا موطنًا للحارس وعائلته، وغالبًا ما كان يقع بجوار مساكن خاصة أخرى أيضًا. غالبًا ما كان «المقهى» أكثر بقليل من غرفة خاصة في منزل خاص كان مخصصًا لتقديم القهوة للضيوف. ويصف كوان حراس المقاهي على أنهم: «أرباب أسرهم، وعلى هذا النحو فهم عادة من الرجال أو الأرامل أو أحيانًا غير المتزوجات من النساء.»[٤٧] وقد سمح هذا الوضع من جهة للمرأة أن يكون لها موطئ قدم في فضاء المقهى حتى وإن كان هامشياً، وضمن فئة محدودة اجتماعياً وطبقياً). لكنه من جهة أخرى عزز تلك الصورة السلبية عن تواجد المرأة في المقهى.

الموجات الثلاث للقهوة:

في مقالة نشرتها عام ٢٠٠٣م، ميزت تريش روثغب بين ثلاث موجات من القهوة. حيث ظهرت الموجة الأولى مع محامص الأسواق العمومية، والتي جعلت من القهوة الرديئة شائعة، ثم بدأت بعض المتاجر بتقديم قهوة الاسبيرسو المميزة اعتمادا على عمليات تحميص صغيرة داخلية، ولكن هذا الطراز طغى عليه عمالقة الموجة الثانية، مثل ستاربكس الذين أتمتوا القهوة المختصة. وتعتمد الموجة الثالثة التي نعيشها حالياً على نهج «بلا قواعد» لتصنيع قهوة مختصة بحرفية عالية. [٤٨]

ارتبطت الموجه الأولى للقهوة بعمليات الإنتاج الضخمة للقهوة المعلبة سريعة التحضير. قبل ذلك؛ كان تحضير القهوة يتطلب وقتاً طويلاً بدءاً من تحميص القهوة الخضراء وطحنها وحتى تقديمها، علاوة على المفاسد المتعلقة بعملية التخزين، والتي أثرت كثيراً في جودة القهوة. ساهمت الحربين العالمية وازدياد الطلب على القهوة في ظهور وتطور القهوة سريعة التحضير. فظهرت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر قهوة فولجرز، وماكسويل هاوس. كما اختُرعت تقنيات التعبئة والتعليب بالتفريغ الهوائي للأكياس للحفاظ عليها طازجة لأطول فترة ممكنة. كما ابتكر الياباني ساتوري كاتو في عام ١٩٠١م القهوة القابلة للذوبان. وقامت شركة نستلة السويسرية بالاستثمار في القهوة البرازيلية في أعقاب الأزمة الاقتصادية التي لحقت بالبرازيل، فطرحت قهوة نسكافية القابلة للذوبان.[٤٩] وقد هيمنت هذه الأنواع

(٤٦) غوردن كير، مرجع سابق، ص ١٦٤

(47) Cowan, Ibid,P280

(٤٨) موريس، مرجع سابق، ص ٢٤٤

(٤٩) غوردن كير، مرجع سابق، ص ٢١٢

من القهوة على سوق القهوة في كثير من الدول، وكان لتوافرها ووجودها في أرفف البقالات دور في انتشارها في فضاءات العمل والمنزل. ومع ذلك فلم تكن هذه القهوة على الدوام طيبة المذاق، إذ لم تلائم أذواق كثير من المستهلكين.

خلال هذه الفترة، بلغت عمليات تطوير آلة الاسبريسو في إيطاليا مرحلة متقدمة، حيث أحدثت نقلة في عالم القهوة والمقاهي. فبالإضافة إلى جودة القهوة التي تقدمها هذه الآلة وقصر وقت تحضيرها، فقد أسهمت أيضاً في إغناء وتنويع القهوة من خلال المشروبات الممزوجة بالحليب. وسرعان ما أقبل الناس من جديد على المقاهي من جديد سعياً وراء اكتشاف هذا المشروب الجديد. وبفضل الإيطالي بينو ريزيرفاتو دخلت هذه الآلة إلى لندن مفتتحة نمطاً جديداً من «بارات القهوة»، والتي حظيت بشعبية واسعة وانتشرت بشكل سريع عدد من الدول. فبحلول عام ١٩٦٠م كان هناك قرابة ٢٠٠٠ بار قهوة في انجلترا، حوالي ٥٠٠ منها في لندن فقط، كما تم رصد هذه المقاهي في استراليا ونيوزلندا وبعض الولايات في أمريكا.(٥٠)

غير أنه في أعقاب فترة الستينات الميلادية المضطربة، ظهرت مجموعة من العوامل التي أدت إلى تراجع القهوة كمشروب. حيث وجهت أصابع الاتهام إلى القهوة كونها السبب وراء انتشار العيوب الخلقية والسرطان والاضطرابات النفسية. ولئن دحضت الدراسات العلمية و / أو شككت في مثل هذه الادعاءات ، إلا أن الضرر الاجتماعي الذي أحدثته هذه الادعاءات لسمعة القهوة كان أكبر من الدليل العلمي على عكس ذلك. من جهة ثانية كان لظهور حركة التجارة العادلة دور في تنامي الوعي الاجتماعي بالظلم الذي يتكبده المزارعون والعاملون في البلدان المنتجة للبن. وقد أدى هذا الوعي بالإضافة إلى نجاح الحملات الاعلانية لشركات المشروبات الغازية إلى تراجع الإقبال على القهوة.(٥١)

في ظل هذه الظروف التي واجهتها حركة القهوة؛ ظهرت بعض المقاهي المستقلة الصغيرة التي استجابت لهذه التحديات، كان من أبرزها مقهى Star-bucks الذي أحدث نقلة في فضاء القهوة والمقاهي ليس فقط من جهة تنوع خيارات المشروبات، وإنما أسهم أيضاً بفضل هوارد شولتز- الذي استلهم من أولدنبورغ فكرة المكان الثالث- في خلق تجربة جديدة أعادت للمقاهي جاذبيتها وألقها، فكانت إلى جانب القهوة المتنوعة التي تقدمها «مكاناً ثالثاً» وملتقى لمحبي القهوة وعشاقها.(٥٢)

(50) Ellis, Markman, The Coffee House, A cultural history, p 236-237

(٥١) للاستزادة عن حركة التجارة العادلة انظر: كاثرين م. تاكر، مرجع سابق، ص ١٨٥- ٢٠٩

(٥٢) غوردن كير، مرجع سابق، ص ٢٢٧

وفي توسعها؛ حرصت ستاربكس على اختيار فروعها في الأماكن المكتضة بالناس، وفي طرقاتهم المؤدية إلى أماكن عملهم لئلا يجدو عذراً في التحول إليها. وكانت للأكواب الورقية ذات العلامة التجارية المميزة دوراً مهماً في الدعاية لهذه المقاهي وجذب الناس إليها.[٥٣] كما اهتمت ستاربكس بضمان توحيد تجربة المستهلك في كافة فروعها، ليس في المذاق وتماثل الأنواع فحسب ، وإنما أيضاً في الطرق التي يتم بها الطلب، حتى أصبح لستاربكس مصطلحاتها المميزة لها. وتحكي باريستا في أحد مقاهي نيوجرسي المستقلة بالولايات المتحدة الأمريكية عن مدى إحباطها عندما يستخدم العملاء معها **«مصطلحات ستاربكس»**. إذ أن لستاربكس مصطلحاتها الخاصة Starbucks-talk التي لا يبدو أن الجميع يعرفون ما تعنيه عندما يستخدمونها. فإذا طلب أحدهم مشروب بحجم «tall» فإن عليها أن تتأكد ما إذا كان يرغب في الحصول على كوب صغير ، فأحيانًا تكون إجابتهم نعم وأحيانًا لا . وذلك يعود إلى أن «Tall» والتي تعني «طويل» تشير في قائمة ستاربكس إلى الحجم الصغير، بينما هي أقرب في التصور الذهني إلى الكبير منها إلى الصغير، قد يجد البعض نوعاً من الصعوبة عند الطلب من ستاربكس. حتى أن هناك صفحة أنشئت في (wikiHow 2015) لمساعدة الأشخاص على التنقل بين خصوصيات وعموميات الطلب في ستاربكس ، مما يشير إلى مستوى الأهمية الاجتماعية المعطاة لاتباع بروتوكول ستاربكس بشكل صحيح.[٥٤]

لكن على الرغم من النجاحات التي حققتها ستاربكس والسلاسل المشابهة، إلا أنها لم تحقق تطلعات عشاق القهوة ومحبيها، إذ طغى الاهتمام بالسرعة والمكان على جودة القهوة. وهو ما أفسح المجال لظهور الموجة الثالثة. ظهرت أول إشارة للموجة الثالثة عند تيموثي كاسل سنة ٢٠٠٠م.[٥٥] وتتميز قهوة الموجه الثالثة بتركيزها على ثلاث عناصر أساسية: الحرفية، الجمالية، والاهتمام بممارسات الإنتاج الأخلاقية[٥٦]. ففي مقاهي الموجة الثالثة ينصب الاهتمام على القهوة أكثر من السرعة والمكان. ثمة حرص ودقة واضحين في عملية تحضير كوب القهوة، تبدأ من المزرعة حيث يتم انتقاء محصول البن بعناية، وتنتهي بالطرق المتنوعة والمحددة بدقة التي يتم بها تحضير كوب القهوة إلى يد العميل، وهي تأخذ في الحسبان مجتمعة عوامل الوقت والتحميص ودرجة الحرارة وطريقة الترشيح، وتصل أحياناً عند بعضهم إلى نوع الماء المستخدم.

(٥٣) موريس، مرجع سابق، ص ٢٣٨

(٥٤) Pozos-Brewer, Rose,coffee Shops: Exploring Urban Sociability and Social Class in the Intersection of Public and Private Space, ٢٠١٥, p ٥٧

(٥٥) موريس، مرجع سابق، ص ٢٤٤

(٥٦) غوردن كير، مرجع سابق، ص ٢٤٣

والقهوة لا تكون «مختصة» مالم تحقق درجة تقييم عالية لا تقل عن ٨٠ من ١٠٠ درجة حسب معايير معهد جودة القهوة العالمي والجمعية العالمية للقهوة المختصة. ويتم تقييمها من قبل مقيّم مرخص (Q–grader) لذلك. والقهوة المختصة أنواع ودرجات، ولكل نوع مذاقه وإيحاءاته وطريقته وأداته الأنسب في تحضيره واستخراج مكنوناته وخصائصه. ولذا فإن تعدد وتنوع طرائق تحضير القهوة تعد السمة الأبرز لمقاهي الموجة الثالثة المختصة، مثل السايفون، ودورق الكمكس الزجاجي وهاريو في ٦٠وغيرها، حيث تكشف كل أداة عن ملامح وتفاصيل وإيحاءات ذوقية لاتبرزها الأداة الأخرى. لذا تتطلب القهوة المختصة درجة من المعرفة المختصة لاتتوافر لكل أحد. والباريستا وحده (وهو عنصر أساس وثابت في مقاهي الموجة الثالثة) هو الأقدر ليس فقط على إعداد القهوة بشكل جيد بل على اختيارها وتقديم المشورة للزبون حولها. فهو خبير مدرب على معرفة خصائصها وتمييز إيحاءتها، مثلما ماهو مدرب على طرق إعدادها واستخلاصها. لذا تجده أحياناً يسترسل في الحديث حولها كعالم لا كعامل.[٥٧] وتعد المنافسات من صلب ثقافة قهوة الموجة الثالثة حيث تقام المسابقات العالمية لصناع الاسبيرسسو. وقد أقيمت أولى البطولات العالمية لصناع الاسبريسسو المحترفين في موناكو سنة ٢٠٠٠م حيث يطلب من المتنافسين في غضون خمس عشرة دقيقة تحضير أربعة أكواب أحدهما للاسبريسسو والآخر للكابتشينو أما الكوبين الأخيرين فهما للمتنافس يقدم فيها بصمته الخاصة. ويحظى الفائزون بشهرة تجلب لهم عقوداً بمبالغ كبيرة.[٥٨]

ولمقاهي الموجة الثالثة جمالياتها، والتي هي جزء من تجربة احتساء القهوة نفسها. وبخاصة تلك الجماليات البصرية بدءاً من أدوات تحضير القهوة المتنوعة إلى أكواب السيراميك التي تقدم فيها وانتهاء بمعمار المكان وديكوراته.[٥٩]

لقد شكلت مقاهي الموجة الثالثة فئتها الخاصة ليس فقط من حيث تميز وجودة منتجاتها ولا جماليات تجربتها، ولكن من حيث موقفها والتزامها الأخلاقي. فقد ارتبط تاريخ القهوة بشكل واضح بعمليات استعمارية واستغلال للبشر وغمط لحقوق المزارعين والمنتجين، لذا ظهرت حركة التجارة العادلة في محاولة للحد من هذا الحيف. إن الحرص على كرامة الإنسان وعدم استغلاله هو مكون أساسي من هوية وروح الموجة الثالثة « فكل فنجان قهوة رائع يستمتع به المرء يجب أن يكون خالياً من آلام المزارعين البسطاء، محققاً أجوراً عادلة لهم، وموفراً حياة كريمة لعائلات أولئك المزارعين، وطفولة كاملة الحقوق لأطفالهم»[٦٠]

(٥٧) الناصر، مرجع سابق، ص ١٢٧
(٥٨) موريس، مرجع سابق، ص
(٥٩) غوردن كير، مرجع سابق، ص ٢٤٤
(٦٠) الناصر، مرجع سابق، ص ٥٩

ويمكن وصف الموجة الثالثة على أكمل وجه بأنها شكل من « الثقافة الفرعية» العابرة للحدود القومية، حيث تضم توليفتها الخاصة من الفلسفات والعلامات التجارية الأيقونية، والمنشورات التي يصدرها المعجبون. وقد مكنت شبكة الانترنت المحامص الصغيرة من العثور على زبائن في أرجاء البلاد يعرفون باسم « الزبائن المناصرين Prosumers» لمناقشة أفضل الطرائق لموائمة وفق ما تقتضي الحاجة وتمكين الذواقة من قراءة آخر المراجعات المتعلقة بالقهوة، كما أن هناك اجتماعات تعقد سنوياً لهذا الغرض.(٦١)

المقاهي في الجزيرة العربية منذ ظهورها وحتى القرن الرابع عشر الهجري:

على الرغم من المشكلات التي رافقت ظهور القهوة والمقاهي أول أمرها؛ إلا أن المقاهي كانت منتشرة في الحجاز. وقد عدّ العياشي الذي زار الحجاز بين عامي ١٠٧٢- ١٠٧٤هـ / ١٦٦٢-١٦٦٣م مجموعة من المقاهي التي كانت تقع على الطريق الواقعة بين مكة والمدينة وفي جدة.(٦٢) وهي عبارة عن سقائف صغيرة من القصب، تقع قريباً من النقاط التي يتوفر فيها الماء، حيث تستقبل عدداً كبيراً من الحجاج والتجار المسافرين، وتقدم فيها لهم القهوة والشاي.(٦٣)

وأغلب مقاهي مكة كانت قريبة من تجمعات الحجاج، وقد ذكر أوليا جلبى أن بين محل إقامة ركب الحج المصري والشامي بمكة أربعين مقهى، وكل واحدة منها مشحونة بخلائق البشر، ففي كل واحدة ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين وهي كما يصفها «مبان عادية» وليست أبنية مصنعة.(٦٤)

وكذلك كانت مقاهي المدينة مزدهرة في مواسم الحج وغيرها. فبجوار الباب المصري بالمناخة، وفي منطقة الحمراء، وحول بئر عباس، تنتصب مجموعة من المقاهي يأوي إليها الحجاج والمسافرون من وهج الشمس ونصب الطريق. كما شيدت مجموعة أخرى في الجنوب الغربي من المدينة، وكانت تعج بالزبائن طول النهار، حيث قامت حولها بعض الأكواخ والسقائف لبيع بعض المؤن. (٦٥)

المقاهي في جدة:

وكان لموقع جدة على طريق التجارة القديم دور في انتشار المقاهي فيها.

(٦١) موريس، مرجع سابق، ص ٢٤٩

(٦٢) العياشي، عبدالله بن محمد، الرحلة العياشية ١٦٦١-١٦٦٣م ، تحقيق سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي، ٢٠٠٦، مجلد ٢، ص ١٥٤-١٥٥

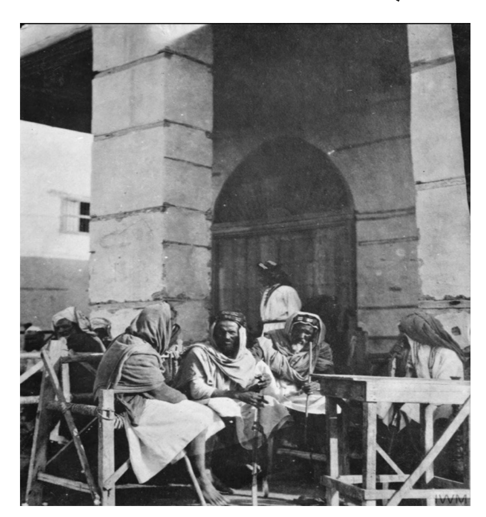
(٦٣) ريزفان، يفيم، الحج قبل مئة سنة: الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي (١٨٩٨- ١٨٩٩م) دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٩٩٣م، ص ١٢٧.

(٦٤) جلبي،أوليا، الرحلة الحجازية، ترجمة، الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م، ص٢٧١-٢٧٢

(٦٥) شريف، رضا أسعد، دور مقاهي الحجاز في خدمة الحجاج منذ ظهورها حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري(العشرين الميلادي)، مجلة البحوث، دارة الملك عبدالعزيز (الدارة)، العدد الثالث، يوليو ٢٠٢١، ص ٤٢-٤٣

[٦٦]حيث مثلت المقاهي عنصراً أساسياً في حياة معظم أهالي جدة القديمة، ولم تكن تخلو أي حارة من وجود عدد من المقاهي بها.[٦٧]وقد عدّ الرحالة السويسري لويس بوكهارت الذي زار مدينة جدة عام ١٨١٤م قرابة سبعة وعشرين مقهى، كانت تمتلئ بالناس طوال النهار.[٦٨] وحين قدم أيوب باشا (١٢٨٩هـ/ ١٨٨٩م) إلى جدة وجد بها ما يقارب أربعين مقهى.[٦٩]* [٧٠]

وهي كما يصفها العياشي « قهاوي ومجالس حسنة، يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها ورشها بالماء، وفيها جلوس غالب أهل البلد، وقد اتخذوا فيها أسرة كثيرة، منسوجة بشريط المسد وبصنعة محكمة». [٧١]



مقهى في جدة سنة ١٩١٧م التقطت من قبل الكابتن البريطاني ماكروري

المصدر: متحف الحرب الإمبراطورية IWM Q 60055

اجتذبت تلك المقاهي– وخاصة التي تحاذي ساحل البحر الأحمر – أنظار مرتاديها من الأهالي والزائرين على السواء، وارتبطت هذه المقاهي بحياة الإنسان وفضائه الاجتماعي وعلاقاته فكانت نادياً أدبياً للأدباء، ومسرحاً للفنان، ومأوى

(٦٦) المعبدي، مبارك محمد، مقاهي جدة ودورها الاجتماعي والثقافي في القرنين الثالث والرابع عشر الهجري، ١٤٣٤هـ، ص

(٦٧) طرابلسي، محمد يوسف، جدة حكاية مدينة، ط ٢ ، ص ١٩٦

(٦٨) بوركهارت، جون لويس، ترحال في الجزيرة العربية ، ترجمة صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٧ مجلد ١ ص ٥٠

(٦٩) صبري باشا، أيوب، مرآة جزيرة العرب، ترجمة أحمد متولي، دار الآفاق العربية ، ١٩٩٩، ص ١٣٤. ووردت نفس الملاحظة عند إبراهيم رفعت باشا في كتابه مرآة الحرمين.

(٧٠) يعزى إلى الحضراوي أنه ذكر في كتابه الجواهر المعدة في فضائل جدة أن بها مائة مقهى، وقد تكرر هذا النقل في كثير من الكتب، لكننا لم نجد هذه الملاحظة في كتابه. وإنما ذكر أن بها ١٢ مقهى وفيها نحو مائة زاوية من زوايا الصوفيين ولعل هذا بسبب خطأ في النقل من أحدهم تتابع عليه آخرون من غير تحقيق.

(٧١) العياشي، عبدالله بن محمد، الرحلة العياشية ١٦٦١-١٦٦٣م ، تحقيق سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي، ٢٠٠٦، مجلد ٢، ص ١٥٤

للغريب والباحثين مكان للمبيت.[٧٢]ومثلت المقاهي لأهل جدة متنفساً ومستراحاً، حيث كان أصحاب الأعمال من الصنائعيين وغيرهم يجلسون فيه صباحاً قبل أن ينطلقوا لأعمالهم، كما كانت المكان الذي يبحث فيه أصحاب العمل عن النجار والبناء وغيرهم. وكان لكل صاحب صنعة مركازاً يأتي إليه من يبحث عن معلّم يختص بهذه الصنعة. [73]»وكانت المقاهي في جدة تبدأ فجرا بتنظيف الشيش وتغيير مائها وملء (البطة) بالماء تحتها النار والجمر حتى يظل الماء ساخنا طوال الوقت ومنها تصب في البراريد». [74] والذين يأتون في الصباح هم غالباً «شقاوية» يأتون للعمل، وآخرون يأتون للبلد لبعض الأعمال فيمرون على القهوة للجلوس ولقاء بعض الأصدقاء.[٧٥]

أما أغلب الزبائن فإنهم عادة ما يتقاطرون عليها بعد عناء يوم العمل بعد العصر أو بعد صلاة المغرب. ففي المساء تتحول المقاهي إلى ملتقى يجمع شرائح متنوعة من المجتمع حسب اهتماماتهم أو مهنهم، فكانت كل فئة تلتقي في مقهاها المفضل، فاشتهرت بعض المقاهي بكونها ملتقى شريحة معينة من المجتمع كالتجار وأرباب الحرف والأدباء والرياضيين.[٧٦]

من جهة أخرى كانت المقاهي فضاءً للترفيه حيث كان الناس يتحلقون للاستماع إلى بعض القصص التي يرويها من عرفوا بـ «الحكواتية»، كقصص عنترة بن شداد، والزير سالم، وأبي زيد الهلالي، مقابل مبالغ بسيطة يستفيد منها صاحب المقهى من بيع أكبر قدر من أباريق الشاي ودلال القهوة.[٧٧] « كانت المقاهي ملتقى السمار حيث تتجمع مجموعات من أبناء الحارة ليصهبوا الصهبة وهي نوع من الغناء الجماعي الجميل، كذلك كان يتحلق بعض مرتادي القهوة المنتظمين حول الراوي الذي يقرأ لهم قصص عنترة بن شداد وأبو زيد الهلالي أو الزير سالم والمياسة والمقداد، وأكثر ما كانت تشدهم بطولات عنترة بن شداد فكان الحزن يتملكهم إذا ما وقع عنترة في الأسر ويصرون على الراوي بعدم مبارحة المجلس حتى يستكمل الرواية بفك أسره».[٧٨]

ويصف محمد صادق دياب مشهد الزبائن المتحلقين حول الحكواتي وهم منغمسون في تفاصيل الرواية:» كان جمهور الحكاية ينقسمون في الغالب إلى

(٧٢) دياب، محمد صادق، جدة التاريخ والحياة الاجتماعية، ١٤٢٤هـ، ص ١١٠
(٧٣) مقابلة أجراها الباحث مع د. محمود صعيدي
(٧٤) طرابلسي، مرجع سابق، ص ٢٠٠
(٧٥) مقابلة أجراها الباحث مع د. محمود صعيدي
(٧٦) طرابلسي، مرجع سابق، ص ٢٠٠
(٧٧) المعبدي، مرجع سابق، ص ٤٦
(٧٨) طرابلسي، مرجع سابق

فريقين، منهم من يؤيد عنترة ومنهم من يتظاهر دعابة بأنه من خصومه ويطلقون هؤلاء على أنفسهم لقب» الزياديين» نسبة إلى بني زياد إحدى عشائر قبيلة عبس، وكان خصوم عنترة يرفضون أن يذهبوا إلى بيوتهم إذا ما وقع عنترة في الأسر، وبالتالي فإن على راوي الحكاية أن يظل يقرأ مئات الصفحات حتى يتمكن من سراح عنترة.. وفي الليلة التي تصل فيها السيرة إلى الفصل الخاص بزواج عنترة من عبلة فإنهم يوقدون الشموع والند ويوزعون الحلوى على الحضور احتفالاً بهذه المناسبة»[٧٩] ومن أشهر القراء لسيرة عنترة في جدة رجل اسمه عمر ويلقبونه بـ «عمر عنترية» نسبة إلى سيرة عنترة التي كانوا يطلقون عليها العنترية.[٨٠]

في زاوية أخرى من المقهى يجتمع آخرون للعب بعض الألعاب كطاولة الزهر أو الداماأو الكيرم وما شابه ذلك، ولم يكن البلوت سائداً بل كانت الضومنة والكشية (الورق).[٨١]

كما كانت بعض المقاهي بمثابة مأوى حيث توفر إلى جانب القهوة والشاي خدمات المبيت لمن يطلب الراحة فيها من غير أهلها بمقابل يسير.

«كانت المقاهي (القهاوي) الموجودة على طريق جدة – المدينة في السبعينات والثمانينات الهجرية، تخدم المسافرين على هذا الخط، وكان مما يُقدم فيها الشاي و الشيشة والسمك المقلي، فيستريح الناس ويريحون سياراتهم لأن السيارات في ذلك الوقت كانت ترتفع حرارتها إذا سارت مسافة طويلة، وكان المسافرون يضطرون للتوقف عدة مرات حسب طول الطريق فيفتحوا غطاء المحرك (الكبوت) لتبريد المحرك، وإذا كان المسافرون من الشباب فينامون على كراسي الشريط ويدفعون أجرة الليلة نصف ريال ويقدم لهم صاحب القهوة المخدة والغطاء (لحاف) ،أما العوائل فكانت مقاهي طرق السفر تخصص لهم غرفاً من الطين في المنطقة الخلفية للقهوة وتكون أجرتها أغلى من أجرة كراسي الشريط ولم يكن في ذلك شيئاً معيباً بل هي حاجة فرضها الظرف آنذاك.»[٨٢]

واشتهرت أكثر المقاهي بأسماء أصحابها كقهوة أبو القعور في الخاسكية وأحمد طيرة وقهوة سعيد حاتم في المظلوم وقهوة العلوي عند مقبرة العلويين في سوق العلوي، وقهوة السلمي، وغيرها.

من هم رواد المقاهي:

اجتذبت مقاهي جدة شرائح متنوعة من السكان وفتحت أبوابها لكل مرتاديها من

(٧٩) محمد صادق دياب، جدة التاريخ والحياة الاجتماعية، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ، ص ١١٣
(٨٠) المرجع السابق
(٨١) مقابلة أجراها الباحث مع د. محمود صعيدي
(٨٢) مقابلة مع الأستاذ هشام العباسي بتاريخ ٩ أكتوبر.

غير تمييز، ومع ذلك فقد كان لكل مقهى نمط من المرتادين يختلف عن الآخر. غير أن بوركهارت لاحظ أن مرتادي المقاهي إنما كانوا من الطبقة الثالثة، ومن النادر أن يرتادها علية القوم. (٨٣)

ويبدو أن المقاهي لم تكن على درجة واحدة –تماماً كحالها اليوم، فهي تختلف باختلاف موقعها داخل البلدة وخارجها. كما أن بعض هذه المقاهي ارتبط بفئة مهنية أو عرقية ما كما هو الحال في قهوة الجمالة والتي تقع في شارع قابل جوار عمارة الشربتلي، وقد كانت ملتقى الجمّالة الذين يأتون من خارج جدة محملين ببعض البضائع إلى السوق. وكذلك قهوة السائقين في حارة الشام والتي كانت ملتقى سائقي السيارات. بينما كانت هناك قهوة لعلي يني يجتمع فيها رجال المعادي والبحارة والمزاورية عند باب البنط بجوار مبنى الإدارة العامة للبنك الأهلي (طريق الملك عبدالعزيز حالياً) وكانت هذه القهوة من أشهر مقاهي جدة حيث يجتمع فيها التجار الهنود والحضارم ورجال البحر.(٨٤)

ولم تكن المقاهي قائمة على أساس طبقي، ذلك أن الجلوس فيها لم يكن يكلف الكثير، لذا كان يرتادها «أهل الحارة» وغيرهم من كافة المستويات الاقتصادية. ولم يكن أصحاب هذه المقاهي وهم من تجار الحي وكبار أهله يفرقون بين «أولاد الحارة» وهم عامة أهل البلد و»أولاد الخرقة» كما يسمونهم وهم بمثابة النخب والمتعلمين فيها، ومع ذلك فقد كان التفاوت والتمايز الطبقي يحضر أحياناً من خلال وضعيات معينة كجلوس كبار النخب والموظفين بعض الأوقات في مقاعد مخصصة لايجلس فيها غيرهم.(٨٥) وأقدم هذه المقاهي المذكورة هو المقهى الذي بناه محمد إبراهيم ويقع في شارع بن زقر المحاذي لساحل البحر الأحمر، وكان يجلس في هذا المقهى كبار أهل جدة بين العشائين وكان ملتقى التجار والعمال والمسافرين معظم أيام الأسبوع.(٨٦)

الأثاث والأدوات:

يتكون المقهى غالباً من نوعين من المقاعد أو الكراسي أحدهما مستطيلة

(٨٣) بوركهارت، مرجع سابق، مجلد ١ ص ٥٠
(٨٤) المعبدي، مرجع سابق، ص ١٤
(٨٥) مقابلة أجراها الباحث مع د. محمود صعيدي
(٨٦) المعبدي، مرجع سابق، ص ١٤

تتسع لشخصين أو ثلاثة، وهي مصنوعة من السعف (الخوص) أو شجر الدوم أو الحبال، وأخرى خشبية مفردة. وأمامهما تنتصب منضدة خشبية، حفرت في أحد جوانب سطحها فتحة تتسع لوضع إناء الماء الفخاري الذي يسمونه (الشربة). وتقدم القهوة والشاي في براريد ذات مقاسات مختلفة وكانت سعة تلك البراريد أربعة فناجيل أو ستة أو ثمانية. [٨٧] أما النصبة الرئيسية (البوفة) فهي تتشكل من عدة أرفف تتوزع عليها أواني الشاي والقهوة، وخلفها ينتصب الإناء النحاسي الكبير الذي يستعمل لغلي الماء ويسمونه البطة وبالقرب منه أواني البن والشاي والسكر. ويطلقون علي الشخص الذي يعمل داخل هذه النصبة (البوفجي)»[٨٨] أما مفروشات المقاهي فكانت من أنواع مختلفة من البسط والسجاجيد مثل بساط الحصيرة، والخصفة والمسطح ويقتصر عددها على ثلاثة أو أربعة في كل منشأة. وأما مقاهي القرى والبوادي فلا يستعمل فيها سوى الفرش العادي أو الكراسي بالإضافة إلى الجلسات المستديرة الملصقة بالجدران الداخلية أو الخارجية للمقاهي، وهناك في بعض المنشآت مثل (ديوان) أو الديوانية وسط الصالة. وتستخدم موازين لوزن القهوة من البن والهيل والزنجبيل والنانخة وغيرها من لوازم القهوة وكذلك لوزن السكر والشاي وهكذا. وتنار المقاهي في الليل قناديل زيتية معلقة في السقف ويكون عددها حسب حجم المقهى وسعته وصغره.[٨٩]

موضوع السمعة والعيب:

يبدو أن المقاهي على الرغم من انتشارها وهدوء السجال الخطابي/ الفقهي حولها ظلت موضوع تقييم أخلاقي خصوصاً عند شريحة بارزة في المجتمع. وحينما يصوّر لنا سعيد السريحي ذلك المشهد من حث الخطى في المشي نحو المقهى هرباً من أعين الناس وألسنتهم؛ فهو يؤكد لنا أن تلك السمعة السيئة التي لحقت بالمقهى هي حقيقة لايمكن تجاهلها بناءً على كون بعض مرتادي تلك المقاهي أو مالكيها هم من كبار ونخب المجتمع الجداوي. فبعض أهالي جدة كغيرهم كان لهم تقويمات سلبية على ارتياد المقاهي، وكانوا يطلقون على من يرتاد المقاهي بكثرة أنه « رد قهاوي»:

«أما رواد المقاهي داخل جدة والمقصد أولئك الزبائن الدائمين للقهوة فكانت سمعتهم غير مستحسنة ويطلق بعض الأهالي عليهم (رد قهاوي) أي أن هذا الشخص منفلت

(٨٧) طرابلسي، مرجع سابق، ص ٢٠٠
(٨٨) موسوعة جدة ص ٦٠٧
(٨٩) المعبدي، مرجع سابق، ص

لا زمام له. ومع ذلك فكان أهل جدة يحبون التجمع والمنادمة فكانت لهم (المقاعد) والتي تُلحق بالبيوت إما داخلها أو خارجها كفضاء اجتماعي منضبط يحضره الكبار، ولا يستنكر أحد التواجد فيه بعكس المقهى، مع تشابه ما يتناوله الناس في المكانين، فالشيشة والشاي هما أغلب ما يتناوله الناس هنا وهناك»[٩٠].

وقد نص نظام طائفة القهوجية الصادر من وزارة الداخلية عام ١٣٧٤هـ على أنه يتوجب على كل صاحب مقهى أن لايجعل من مقهاه موقعاً للمستهترين المشتبه في سلوكهم، وأن يراقب الأحداث المرتادين، فينذرهم ويمنعهم من دخول مقهاه إن بدر منهم مايخل بالشرف والكرامة وإلا كان مستحقاً للعقوبة.[٩١]

ويرى محمود صعيدي، أن الناس أخذت مفاهيم مغلوطة أن القهوة لايرتادها الا الخمارين والسكارين.[٩٢]وفي رأينا؛ فإن جزءاً من تلك الوصمة التي لحقت بالمقاهي سببها وجود الشيشة والجراك، وقد اشتهر رأي كثير من العلماء في القول بتحريمها، ولذا فإن ملاك بعض المقاهي لم يسمحوا بدخولها.[٩٣] ومع ذلك، فإن حقيقة كون بعض ملاك ومرتادي تلك المقاهي من نخب وأعيان أهل جدة أسهم في تخفيف وطأة العيب وخلق حالة من القبول لدى مرتادي تلك المقاهي، وإن لم يطهرها تماماً من تلك السمعة التي ارتبطت بها.

المقاهي في المملكة العربية السعودية خارج الحجاز:

ويبدو أن المقاهي لم تظهر في الجزيرة العربية خارج الحجاز إلا في فترة متأخرة، مع قيام واستقرار المملكة العربية السعودية. إذ يعود تاريخ ظهور أولى المقاهي في الرياض إلى مطلع السبعينات الهجرية حين افتتح الملك سعود مقهى الزهور لابن عبدان سنة ١٣٧٤هـ.[٩٤] كما ظهرت أولى المقاهي في الخبر في فترة مقاربة.[٩٥]واتخذت تلك المقاهي الشكل الذي كانت عليه في الحجاز من حيث طبيعة الأثاث ووظائف المكان، «فهي متعددة الخدمات؛ إذ تقدم الشيشة والشاي وبعض الوجبات الغذائية، وتتحول في الليل إلى نزل لعابري الطريق من المسافرين؛ لأن كراسيها خشبية طويلة، وجلساتها مصنوعة من الحبال المتينة، وتشبه المركاز في الحجاز، وإذا تفرق الناس يؤجر الكرسي الواحد آنذاك بريال أو ريالين لأغراض نوم الزبون، ويتسلم عامل المقهى حقه مقابل بطانية ووسادة،

(٩٠) مقابلة مع الأستاذ هشام العباسي بتاريخ ٩ أكتوبر.
(٩١) نظام طائفة القهوجية، جريدة أم القرى، يوم الجمعة ٥ محرم، سنة ١٣٧٤هـ - الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤م .
(٩٢) مقابلة أجراها الباحث مع د. محمود صعيدي
(٩٣) المعبدي، مرجع سابق، ص
(٩٤) منصور العساف، قهاوي الرياض القديمة ..شاي عدني وربع كبسة، جريدة الرياض، الجمعة ١٠ صفر ١٤٣٢ هـ - ١٤يناير ٢٠١١م - العدد ١٥٥٤٤.
(٩٥) المدني، عبدالله، الخبر، ص ١٩١

وتنتهي المدة بطلوع الشمس لأن النوم كان في الهواء إذا كان الجو لطيفاً» (٩٦) ولم تظهر المقاهي العصرية إلا في أول التسعينات الهجرية مع التحول الاجتماعي الناتج عن مخرجات الطفرة الاقتصادية آنذاك.(٩٧)

وقد ظلت المقاهي في عنيزة على قلتها، ورغم التحولات التي لحقت بالمجتمع مطلع التسعينات الهجرية، فضاء لا يتردد عليه في الغالب سوى العمال الوافدين، أما رجال المجتمع المحلي فقد كانوا يفضلون المجالس الملحقة بالبيوت مكاناً للالتقاء والمسامرة، ونادراً ما كانوا يذهبون للمقاهي.(٩٨)

(٩٦) الشقير، عبدالرحمن، بدايات المقاهي، فضاءات العامة في مجتمع تقليدي، ضمن كتاب الذاكرة الشعبية، دار ابن النديم، ٢٠٢٠، ص ١٤٤-١٤٥

(٩٧) المرجعين السابقين.

(٩٨) التركي، ثريا، وكول، دونالد، عنيزة التنمية والتغيير في مدينة نجدية قديمة، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٠م، ص ٢٥٢-٢٥٣.